Revue des lumiéres
Revue spécialisée en sciences humaines, pensée, politique et communauté, publiée par centre Al-Isbaah pour les études civilisationnelles, politiques et stratégiques

مجلة مختصة بالعلوم الإنسانية والفكر والسياسة والمجتمع
مجلة أكاديمية فصلية محكمة
تصدر عن مركز الإصباح للدراسات الحضارية والسياسية والإستراتيجية

مجلة الإصباح

العدد 02 أبريل 2019
(online) ISSN 2649-4744

-فلسفة الدين بين العقل ومناهج التفسير (د. جمال الهاشمي)
-محاورة في أصول الأديان: قراءة نقدية في فكر الدكتور يوسف شلحت (د. سيروان عبد الزهرة الجنابي)
- تمثلات الهوية الدينية بين الإسلام والمسيحية (د. علي الطالب مبارك)
- الفكر الاستراتيجي والأمني في الجزائر: الواقع والمأمول (د. بهلول نسيم)
-الملك جيمس الثاني والقضية الأيرلندية (د. ميثاق بيات الضيفي، م.م. أحمد عبود عبد الله)
- عرّاف القرية وزعيمها في مصر خلال عصور ما قبل التاريخ وبداية الأسرات
(د. زينب عبد التواب رياض خميس)
- المكان الحاوي: عندما يُكسب قيمة مضافة للتّشكيل المعماري (قراءة سيميولوجية للعمارة التقليدية نموذجا)
(د. زينب قندوز غربال)
- في تلاقي ياجي وفيفيان: التجربة والثمار من باريس إلى أم درمان: قراءة في كتاب الدكتور مكي البدري
(د. قاسم المحبشي)

Le management public des RH sous l'éclairage de la justice organisationnelle
Le cas de la fonction publique algérienne (Ouahabi Benramdane)

تمثلات الهوية الدينية بين الإسلام والمسيحية

Representations of religious identity between Islam and Christianity

د. علي الطالب مبارك

جامعة ادرار – الجزائر

Dr.. Ali the student Mubarak

University of Adrar - Algeria

ali01socio1984@yahoo.fr

الملخص:

تهدف الدراسة هذه إلى التعرف على عوامل تشكيل صورة الأنا والآخر في المخيال الغربي والإسلامي, منطلقة من التساؤل التالي إلى أي حد تعمل النظرتان المسيحية والإسلامية, المنتجتان في ظروف المواجهة إبان المرحلة الوسيطية على التأثير في طريقة إدراك الآخر في الزمن الراهن؟ وهل عملت الحداثة على تشكيل صورها الخاصة بخصوص النظرة المتبادلة بين الشرق والغرب؟ هل يمكن القول أن العصر الوسيط وضع الأسس الدينية العميقة للنظرتين المتبادلتين بين أوروبا والإسلام, لدرجة أنها ما زالت تؤثر وبشكل عميق في التمثلات التي مازال يحملها كل طرف عن الآخر؟

ما هي نسبة الأسطورة والواقع التي يحوزها الغرب في الوعي واللاوعي الإسلامي؟ وكيف تمت عملية إدماج الآخر الإسلامي في فكر ومتخيل النخب؟

و وفي الأخير تبقى الحاجة ملحة إلى تصحيح الرؤية المتبادلة بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي.

الكلمات المفتاحية:

الهوية الدينية, صراع الهويات, التمثلات الاجتماعية, الحضارات, الحداثة.

Summary:

This study aims at identifying the factors of shaping the image of the ego and the other in the Western and Islamic imagination. This is based on the following question: To what extent do the Christian and Islamic views produced in the conditions of confrontation during the intermediate stage influence the way one perceives the other at present?

Has modernity shaped its own images of the East-West view? Is it possible to say that the Middle Ages laid the deep religious foundations of the mutual views between Europe and Islam, to the extent that they still profoundly affect the representations still held by each other?

What is the percentage of myth and reality that the West has in the Islamic consciousness and unconsciousness? How was the process of integrating the Islamic Party into the thinking and imagination of elites?

Finally, there is an urgent need to correct the mutual vision between the Islamic East and the Christian West.

Key words: Religious Identity, Conflict of identities, Social Représentations, civilizations, Modernity.

مدخل تمهيدي:

الحديث عن الهوية في الوقت الراهن أصبح من الأساسيات التي ينبغي أن يتوفر عليه جُهد النّخبة الواعية المثقّفة من أبناء الأمة. وذلك لأن الأمم لا تحيا بدون هوية, إذ هذه الأخيرة بمثابة البصمة التي تميز الأمة عن غيرها من الأمم, ولا يمكن لأمة تريد لنفسها البقاء والتميز أن تتخلى عن هويتها, فإذا حدث ذلك فمعناه: أن الأمة فقدت استقلالها وتميزها, وأصبحت بدون محتوى فكري, أو رصيد حضاري, ومن ثَم تتفكك أواصر الولاء بين أفرادها, وتتلاشى شبكة العلاقات الاجتماعية فيها. وهوية أية أمة هي صفاتها التي تميزها من باقي الأمم لتعبر عن شخصيتها الحضارية. والهوية دائماً جماع ثلاثة عناصر:

العقيدة التي توفر رؤية للوجود, واللسان الذي يجري التعبير به, والتراث الثقافي الطويل المدى[1]. اللغة هي التي تلي الدين كعامل مميز لشعب عن شعب آخر, ثم يأتي التاريخ وعناصر الثقافة المختلفة في صنع الهوية. وأهم عناصر الهوية هو الدين, وتصبح الهوية الدينية أكثر أهمية في حالة الحروب والصراعات, فحين يشعر الناس أنهم مهدّدون في عقيدتهم يبدو أن الانتماء الديني هو الذي يختزل هويتهم كلها, إنها حرب هويات[2].

1. الهوية والانتماء:

لا تُعطى الهوية مرة وإلى الأبد, فهي تتشكل وتتحول على طول الوجود. كم هو حقيقي أن ما يحدد انتماء شخص إلى مجموعة ما هو تأثير الآخرين بشكل أساسي, أي القريبين منه كأهله ومواطنيه وأخوته في الدين الذين يسعون إلى تملكه, وتأثير الذين في المواجهة والذين يعملون على إقصائه. عندما يُضطهد المرء بسبب ديانته وعندما يتعرّض للإهانة أو السخرية بسبب بشرته أو لهجته أو ثيابه فهو لن ينسى ذلك. فالهوية تتشكل من انتماءات متعددة, ويكفي المساس بانتماء واحد لكي ينتفض الشخص بكليته.

عندما يجتاح الانتماء المتهم, أي اللون أو الدين أو اللغة أو الطبقة, الهوية كاملة يشعر الذين يتشاطرونه بالتعاضد فيتجمعون وتيجنّدون ويتبادلون التشجيع ويهاجمون الذين في المواجهة. بالنسبة لهم يصبح تأكيد هويتهم اضطراراً عملاً شجاعاً وعملاً محرراً[3].

يتحاذى ويتواجد حول المتوسط, منذ قرون فضاءان حضاريان أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب والشرق. في العصر الروماني كل تلك الأصقاع التي أصبحت من بعد مسيحية أو مسلمة أو يهودية, كانت تنتمي إلى الامبراطورية ذاتها, لم تكن سوريا أقل رومانية من الغال وكان شمال أفريقيا من وجهة النظر الثقافية إغريقياً رومانياً أكثر من أوروبا الشمالية.

لقد تغيرت الأمور جذرياً مع الظهور المتتالي لديانتين موحدتين. أصبحت المسيحية في القرن الرابع الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية. وبعد أن نشر المسيحيون عقيدتهم الجديدة بشكل يثير الإعجاب بواسطة التبشير والصلاة ومثال القديسين,

---

[1] علي حرب, حديث النهايات فتوحات العولمة ومأزق الهوية, ط02, المركز الثقافي العربي, المغرب2004, ص181.

[2] جاسم بن محمد المهلهل الياسين, الهوية الإسلامية, شركة السماحة للطباعة والنشر, ط01, الكويت2012, ص10.

[3] أمين معلوف, الهويات القاتلة قراءات في الانتماء والعولمة, ط01, ورد للطباعة والنشر, سوريا- دمشق1999, ص57.

استخدموا سلاح السلطة لتوطيد حكمهم واضعين الديانة الرومانية القديمة خارج القانون ومطاردين أتباعهم الآخرين. لا شك أن الإسلام قد استفاد تقليدياً من وجود أتباع الديانات الأخرى الموحدة على الأراضي التي يسيطر عليها. قد يقول الذين يعارضون هذا الرأي لماذا التبجح بتسامح الماضي, والحاضر على ما هو عليه؟ إنه لعزاء رديء أن نعرف أن الإسلام كان متسامحاً في القرن الثامن, في حين يُذبح الكهنة اليوم ويُطعن المثقفون وتطلق النار على السياح. لا أهدف من خلال التذكير بالماضي إلى إخفاء الفظاعات التي تلقيها الأخبار في وجهنا يومياً, والتي تتضمن أخباراً وصوراً من الجزائر وكابول والعراق وسوريا واليمن وفلسطين وطهران وصعيد مصر أو غيرها.

إن هناك ديانتين متقابلتين, ديانة مسيحية معنية دائماً بنقل الحداثة والحرية والتسامح والديمقراطية, وديانة مسلمة مكرّسة منذ البدء للتسلط والظلامية. حدث انقلاب في موازين القوى الأخلاقي بين الشمال وجنوب المتوسط.

إن العالم الإسلامي لم يعد بروتوكول التسامح الذي كان سائداً في الدول المسلمة يتوافق مع المعايير الجديدة, لدرجة أن العالم الإسلامي بعد أن كان على رأس التسامح أصبح في المؤخرة, كذلك في النصف الثاني من القرن العشرين, بدأ موقع الأقليات الدينية في كنف أوروبا المسيحية بالتحسن بصورة ملحوظة.

يوجد هنا رأيان يستحقان التفنيد. الرأي الذي يعتبر الحصيل التاريخي إيجابي للعالم الإسلامي في موضوع التسامح, أن موجات العنف الحالية مجرد منعطفات عابرة. أما الرأي الشائع الواسع الانتشار في الغرب يرى في الديانة المسلمة مصدر كل الشرور التي تعاني منها المجتمعات التي ينتمون إليها. ولا أعتقد أنه يمكن فصل معتقد ما عن مصير أتباعه, ولكن يبدو أننا نبالغ غالباً بتأثير الأديان على الشعوب, في حين نهمل على العكس تأثير الشعوب على الأديان. إضافة إلى ذلك يصح هذا الأمر على كل العقائد. إذا كان من حقنا التساؤل عما فعلته الشيوعية بروسيا, من المفيد أيضاً التساؤل عما فعلته روسيا بالشيوعية, وكيف كان يمكن لتطور هذه العقيدة ومكانتها في التاريخ, وأثرها في مختلف مناطق العالم, أن يكون مختلفاً لو أنها انتصرت في ألمانيا أو انكلترا أو فرنسا, بدلاً من روسيا والصين. بالتأكيد نستطيع أن نتخيل أنه كان سيولد ستالين آخر في هيدلبرغ أو ليدز أو بوردو. وبالطريقة ذاتها نستطيع أن نتساءل عما كانت ستكونه المسيحية لو أنها لم تنتصر في روما, ولم تستوطن في أرض مجبولة بالقانون الروماني والفلسفة اليونانية اللذين يبدوان اليوم عتبات الثقافة الغربية المسيحة[1].

2. الهوية والاختلاف:

كل المذابح التي حدثت خلال السنوات السابقة, وكذلك معظم الصراعات الدامية ترتبط بملفات عن الهوية. يوجد في تاريخ الإسلام ومنذ بداياته قدرة مميزة على التعايش مع الآخر. ففي نهاية القرن الماضي كان يوجد بين سكان اسطنبول عاصمة القوة الإسلامية أغلبية غير مسلمة تتألف من اليونانيين والأرمن واليهود. هل يمكن أن نتخيل في العصر ذاته أن يكون نصف سكان باريس أو لندن أو فيينا أو برلين من غير المسيحيين, مسلمين أو يهود؟ وحتى اليوم أيضاً يتفاجأ العديد من الأوروبيين لسماع نداء المؤذن في مدنهم[2].

هل أن المسيحية بجوهرها متسامحة ومحترمة للحريات ومفطورة على الديمقراطية؟ إذا صغنا التساؤل بهذا الشكل نكون مضطرين إلى الإجابة بـ لا. إذ يكفي العودة إلى بعض كتب التاريخ لنتبين كم من التعذيب والاضطهاد والقتل مُرس على مدى العشرين قرناً الماضية باسم الدين, وأن أعلى السلطات الكهنوتية وكذلك الغالبية العظمى من المؤمنين استفادت من تجارة العبيد وخضوع النساء, والديكتاتوريات الجائرة وكذلك من محاكم التفتيش. فهل هذا يعني أن المسيحية في جوهرها مستبدة وعنصرية ورجعية وغير متسامحة؟ أبداً, يكفي أن ننظر حولنا لنتبين أنه يوجد اليوم علاقة جيدة مع حرية التعبير

---

[1] أحمد بعلبكي...وآخرون, الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر, ط01, مركز دراسات الوحدة العربية, بيروت- لبنان2013, ص235.

[2] جورج قُرْم, المسألة الدينية في القرن الواحد والعشرين, ط01, دار الفرابي, بيروت- لبنان2007, ص95.

وحقوق الإنسان والديمقراطية. هل يجب أن نستنتج أن جوهر المسيحية قد تغير! أو أن الروح الديمقراطية التي يحركها بقيت مختبئة خلال تسعة عشر قرناً لتنكشف في منتصف القرن العشرين قط.

لكي نفهم لا بد من طرح الأسئلة بصورة مختلفة: هل كانت الديمقراطية في تاريخ العالم الإسلامي مطلباً دائماً؟ إذا قارنا تاريخ العالم المسيحي مع العالم المسلم نكتشف من جهة ديانة متعصبة لفترة طويلة وتحمل إغراء توتاليتارياً واضحاً, ولكنها تحولت شيئاً فشيئاً إلى ديانة انفتاح. ومن جهة ثانية ديانة تحمل رسالة انفتاح, ولكنها انحرفت شيئاً فشيئاً إلى سلوكيات تعصبية وتوتاليتارية.

عندما أشير إلى تأثير المجتمعات على الأديان أفكر مثلاً بواقع تهجم مسلمي العالم الثالث بعنف على الغرب, ليس فقط لأنهم مسلمون وأن الغرب مسيحي, ولكن أيضاً لأنهم فقراء ومحكومون ومنتهكون بينما الغرب غني وقوي. إن الحركات الأصولية الإسلامية ليست نتاجاً خالصاً للتاريخ الإسلامي, إنها نتاج عصرنا وتوتراته ونحرافاته وممارساته وخيباته.

ما يتعارض مع الواقع تلك الرؤية الخاطئة عند المراقبين والأتباع المتحمسين, بأن نضع كل حدث يجري في بلد مسلم تحت عنوان الإسلام, في حين أن هناك عوامل أخرى تؤثر أيضاً وتفسر بشكل أفضل ما يحدث.

أنهي هذا الاستطراد القصير للعودة إلى الطرح الأساسي, وهو أننا غالباً ما نمنح مكانة هامة لتأثير الأديان على الشعوب وتاريخها, وأقل من ذلك لتأثير الشعوب وتاريخها على الأديان. إن التأثير متبادل: فالمجتمع يشكّل الدين الذي يشكّل المجتمع بدوره, ومع ذلك فإننا نلاحظ أن هناك طريقة واحدة في التفكير تقودنا إلى ألا نرى إلا مظهراً واحداً لهذه الجدلية مما يشوّه رؤيتنا للأمور. ولا يتردد البعض في تحميل الإسلام مسؤولية كل المآسي التي عرفتها وما تزال تعرفها المجتمعات الإسلامية. ولا أنتقد هذه النظرة كونها ظالمة, بل لأنها جعلت أحداث العالم غير ممكنة الفهم تماماً[1]. إن المشهد الذي يتبدى لنا في سوريا والعراق واليمن وفي كل مكان, والمكوَّن من العنف والأصولية والتسلط والقمع, ليس ملازماً للإسلام, مثلما تكشَّف أن جزاري محاكم التفتيش أو الملوك المستندين إلى الحق الإلهي لا علاقة لهم بالمسيحية.

3. صراع الهويات:

ترتكز أطروحة صدام الحضارات لـ صموئيل هانتنغتون على فرضية أساسية, وهي أن الثقافة أو الهوية الثقافية هي التي تشكِّل نماذج التماسك والتفكك والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة, لن تكون بين طبقات اجتماعية غنية وفقيرة, ولكن بين شعوب تنتمي إلى هويات ثقافية مختلفة.

ينطلق هانتنغتون من مقولة يعتبر فيها الحضارات هي القبائل الإنسانية الكبرى. وصدام الحضارات هو صراع قبلي على المستوى العالمي, حيث يشير إلى أن الهوية الثقافية هي العامل الرئيسي الذي يشكل تقاربات الدولة وعداوتها. فالشعوب التي فصلتها الايديولوجيا وحَّدتها الثقافة(الألمانيتان- الكوريتان- الصين...).

فالدول لا تستطيع ان تفتقر إلى هوية, هويتها الثقافية تحدد مكانها في السياسة الدولية, وتحدد أصدقاءها وأعداءها. وبالتالي فأكثر الاختلافات أهمية بين الشعوب لم تعد أيديولوجية ولا سياسية أو اقتصادية, إنما ثقافية أو تراثية. إن الشعوب والدول تحاول أن تجد الإجابة عن أكثر الأسئلة أهمية, من نحن؟ « إن الشعوب لا تستعمل السياسة لمجرد أن تدفع بمصالحها قدماً, ولكن أيضاً من أجل تحديد هويتها. إننا نعرف من نحن فلقط.. عندما نعرف أولئك الذين ضدنا»[2].

إن القضية الجوهرية في العلاقات بين الغرب وباقي العالم هي التنافر بين جهود الغرب لتكريس عالمية الثقافة الغربية-وبخاصة الأمريكية- واللافت أنه يستخدم متغير العداء للغرب في تصنيفه لطبيعة العلاقات بين الغرب والباقي على الشكل التالي:

- الحضارات المتحدية: وهي الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية.

---

[1] روجيه غارودي, نحو حرب دينية؟ جَدَل العصر, ط03, دار الفرابي, بيروت- لبنان2001, ص27.

[2] داريوش شايغان, أوهام الهوية, ط01, دار الساقي, بيروت- لبنان1992, ص71.

– الحضارات الضعيفة: وهي المتمثلة في امريكا اللاتنية وأفريقيا.

– الحضارات المتأرجحة: وهي الروسية واليابانية والهندوسية, حيث يسود عناصر التعاون والصراع, وهي تتأرجح من جانب إلى آخر في علاقتها بالغرب.

يحاول فوكوياما تفسير نزعة المسلمين للعنف في ما بينهم ومع غيرهم متوسلاً ببعض التبريرات ومنها:

1. إن الإسلام كان منذ البداية دين السيف, فهو يثمّن القيم والفضائل العسكرية, ويطرح الحرب ضد الكفرة, ومفهوم اللاعنف غائب عن العقيدة والممارسة عند المسلمين.

2. إن انتشار الإسلام في معظم العلم جعل المسلمين على اتصال مباشر مع شعوب متعددة تم غزوها وتحويلها إلى الإسلام. ومواريث هذه العملية هذه العملية مازالت باقية.

3. طبيعة المجتمعات المسلمة, فغالبيتها لديها مشاكل مع الأقليات مقارنة بتلك التي ليست مسلمة مع الأقليات المسيحية.

4. عدم وجود دولة أساسية أو أكثر, وبالتالي فإن أكثر من دولة تتطلع إلى قيادة العالم الإسلامي(السعودية, إيران, تركيا, باكستان, أندونسيا, مصر...) وليس هناك واحدة منهم قادرة على أن تقوم بتسوية الصراعات أو أن تتصرف سلطوياً نيابة عن المسلمين.

3. 1 صدام بين الحضارات: أثار هذا السؤال صمويل هنتنجتون عام1993. فإننا نلاحظ في كتابه التالي أن صدام الحضارات أصبح عين التعريف المحدد لطبيعة سياسة النظام العالمي الجديد. واستهدفت الفكرة الأصلية فهم السياسة العالمية بعد نهاية صراع الشرق- الغرب وذلك وفق إطار تصنيفي جديد, أو إطار لا يعطي الأولوية لصراعات القوة السياسية أو لسباق التسلُّح أو الحرب من أجل الموارد الاقتصادية النادرة, أو في صورة تطاحن بين منظومتين ايديولوجيتين. وشاء لهنتنجتون أن يدرج في تحليل السياسة الدولية أسلوباً جديداً في النظر إلى السياسة باعتبارها صداماً بين الثقافات[1].

إن هنتنجتون لا يعتبر الإسلاميين أو الأصولية الإسلامية المشكلة الرئيسية, بل الإسلام ذاته مفترضاً أنه حضارة مختلفة تماماً وبالكامل عن جميع الحضارات الأخرى. ويؤكد هنتنجتون أن المجتمعات والدول الإسلامية تقع عند خطوط المنازعات الثقافية للعالم ولهذا بدت عنيفة بشكل مفرط. إذ نراه يدفع بأن المسيحيين وغير المسلمين على السواء لا ينكرون الحماسة لحرب إسلامية والاستعداد لستخدام العنف, ولهذا يخلص إلى نتيجة واضحة هي أن الإسلام في ذاته يتصف بطابع العنف[2].

4. الدين والدولة..أية علاقة؟

السؤال المطروح ليس أن نعرف لماذا لم تنجح حضارة الإسلام أو الصين في أن تصبح حضارة مسيطرة, فقد كان لكل منها مكامن جاذبيتها. السؤال هو في أن نعرف لماذا بدأت كل الحضارات الأخرى بالتراجع عندما تقدمت الحضارة الأوروبية المسيحية, ولماذا تم تهميشها كلها بصورة تبدو اليوم نهائية؟

إن البشرية امتلكت منذ ذلك الحين الوسائل التقنية التي تمكنها من السيطرة على الكوكب. أو لنقول أن البشرية كانت قد بلغت من النضج ما يمكنها من إنجاب حضارة كوكبية كانت البويضة جاهزة للتلقيح وقد لقحتها أوروبا الغربية[3]. لدرجة أننا كيفما نظرنا اليوم نجد الغرب حولنا بما فيه سعادة العالم وتعاسته. حيثما نحيا على هذا الكوكب نجد أن كل حداثة هي عملية تغريب, وهو ميل تزيد التطورات التقنية من حدته وتسارعه, في كل مكان تقريباً نجد بالتأكيد صروحاً وأعمالاً تحمل بصمة

---

[1] لبيب الطاهر, صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه, مركز دراسات الوحدة العربية- الجمعية العربية لعلم الاجتماع, ط01, بيروت1999, ص812.

[2] دييتر سنغاس, الصدام داخل الحضارات التفاهم بشأن الصراعات الثقافية, دار العين للنشر, ط01, الاسكندرية – مصر2008, ص133.

[3] المسيري عبد الوهاب, الهوية والحركية الإسلامية, ط02, دار الفكر, دمشق2010, ص141.

حضارات خاصة, ولكن كل ما يولد من جديد سواء تعلق الأمر بالأبنية أو المؤسسات أو أدوات المعرفة أو طريق العيش هو على صورة الغرب.

أما بالنسبة لبقية العالم وكل الذين ولدوا في كنف ثقافات مهزومة فقد طُرح الاستعداد للتغير والحداثة بصيغ مختلفة.فبالنسبة للصينيين أو الأفارقة أو الهنود أو اليهود أو الأتراك, تضمنت الحداثة على الدوام التخلي عن جزء من الذات, وحتى عندما تستشير الحداثة مشاعر الحماسة أحياناً فقد كان يتخللها دائماً بعض المرارة, وشعور بالمهانة والتنكر للذات, وأزمة هوية عميقة.

عندما تحمل الحداثة علامة الآخر, لا يكون مفاجئاً أن ترى بعض الأشخاص يرفعون شعارات السلفية من أجل تأكيد اختلافهم. في كل خطوة في الحياة نصادف إحباطاً وخيبة وإهانة, فكيف لا تصبح شخصيتنا ممزقة؟ وكيف لا نشعر بهويتنا مهددة؟ كيف لا نشعر بأننا نعيش في عالم يمتلكه الآخرون ويخضع لقواعد يمليها الآخرون, عالم يشعر فيه المرء أنه يتيم أو غريب أو دخيل.

لِمَ كان التطور في الغرب إيجابياً إلى هذا الحد ومخيباً للآمال في العالم المسلم؟ لماذا عرف الغرب الذي يمتلك تاريخاً طويلاً من التعصب وكان يصعب عليه دائماً التعايش مع الآخر, كيف ينتج مجتمعات تحترم حرية التعبير, في حين أن العالم المسلم الذي مارس التعايش لزمن طويل يظهر هذه الأيام كمعقل للتعصب؟

إذا كانت المسيحية قد شكّلت أوروبا, فأوروبا أيضاً قد شكلت المسيحية. إن المسيحية اليوم هي ما صنعته بها المجتمعات الأوروبية. لقد تحوّلت مادياً وفكرياً وغيّرت مسيحيتها معها. كم من مرة شعرت الكنيسة الكاثوليكية أنها مهدّدة ومخدوعة! كم من مرة هبت تسعى جاهدة لتأخير تغيرات تبدو لها مخالفة للعقيدة وللأخلاق الحميدة والإرادة الإلهية! فقد كانت مجبرة على مراجعة نفسها يومياً في مواجهة علم منتصر يتحدى الكتابات المقدّسة, وفي مواجهة الأفكار الجمهورية والعلمانية والديمقراطية, وفي مواجهة تحرر المرأة والتشريع الاجتماعي للعلاقات الجنسية قبل الزواج, والولادات خارج الزواج, ومنع الحمل...لقد بدأت الكنيسة دائماً بالتصلب قبل أن تُعمل المنطق وقبل أن تتكيف.

لقد اخترع المجتمع الغربي الكنيسة والديانة التي كان يحتاج إليها. لقد ساهم المجتمع بكامله, وكل الذين ساهموا في تطور الذهنيات ساهموا أيضاً في تطور المسيحية, وهم ما زالوا يساهمون بما أن التاريخ مستمر. وكذلك في العالم المسلم, أنتج المجتمع دوماً ديانة على صورته. إضافة إلى أن هذه الصورة لم تكن أبداً ذاتها من عصر إلى آخر ومن بلد إلى آخر. عندما كان العرب ينتصرون ويشعرون أن العالم لهم, كانوا يؤولون عقيدتهم بروح من التسامح والانفتاح. لقد انطلقوا في مبادرة واسعة وهي ترجمة الموروث اليوناني وكذلك الإيراني والهندي مما سمح بازدهار العلم والفلسفة. في بداية الأمر اكتفوا بالتقليد والنسخ ثم تجرؤوا على الإبداع في التنجيم والزراعة والكيمياء والطب والرياضيات, وكذلك في الحياة اليومية في فن المأكل والملبس وتزيين الشعر والغناء. حتى أنه كان يوجد معلمون للموضة يبقى زرياب أشهرهم. فقد عرفت بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وتونس من القرن السابع وحتى القرن الخامس عشر, علماء عظماء ومفكرين كبار وفنانين, إضافة إلى أعمال كبيرة في اصفهان وسمرقند واسطنبول حتى القرن السابع عشر. لقد انفتح الإسلام منذ خطواته الأولى دون حدود على الإيرانيين والأتراك والهنود والبربر, إنها ضريبة العالمية التي ينادي بها الإسلام[1].

5. الموقف من الحداثة:

بدأ العالم الإسلامي المتوسطي يعي تهميشه والهوة التي تفصله عن الغرب نحو نهاية القرن الثامن عشر. بعد حملة نابليون بونابرت على مصر في عام 1799م بدأت شخصيات عديدة من المتعلمين تطرح أسئلة مثل: لماذا تأخرنا إلى هذا الحد؟ لماذا تجاوزنا الغرب؟ ماذا فعل؟ وماذا علينا أن نفعل للحاق به؟ فاختلفت الإجابة حسب كل اتجاه فكري.

---

[1] أمين معلوف, الهويات القاتلة, مرجع سابق, ص41.

فالسلفي يرى أننا تأخرنا نحن المسلمين, لأننا أضعنا ديننا ولم نتمسك بإسلامنا الصحيح الذي هو عودة إلى الأصول. واللبرالي يرى أنه يجب أن ندع تراثنا, ونيمّم شطر أوروبا فنعمل كما عملت الدول المتقدمة لنلحق بركب الحضارة الحديثة. والتوفيقي يرى أنه يجب ألا نقف على أرض التراث وحده, ولا أن نتّجه كلياً نحو أوروبا, بل نأخذ من كلا التراث والحداثة أحسن ما فيهما: ما يلائمنا ويوافقنا[1]. ويمكن القول أن مدار الفكر العربي الحديث منذ بداية النهضة العربية إلى يومنا هذا هو التوفيق بين القديم والحديث: بين التراث العربي الإسلامي, والثقافة الغربية المعاصرة, في مختلف الميادين الفكرية والأدبية والسياسية والاجتماعية. لقد وجد العرب أنفسهم عند بدء يقظتهم أمام نوعين من الواقع: واقع الحضارة الغربية التي داهمتهم في عقر دارهم وهم شبه نيام. حضارة سمتها الأولى العقلانية في التفكير والتنظيم والعمل. وواقع تراثي عربي إسلامي يذكّرهم بذلك الماضي المجيد الذي يغريهم بالرجوع إليه, والتماس الحلول منه. وأمام التحدي الحضاري الغربي, وإغراء الماضي وتمجيده, وجد العربي نفسه يعيش مأساة مزدوجة, تبدأ بازدواجية الفكر ولا تنتهي.

كيف نوفق بين تراثنا المجيد الزاهر وبين ثقافة العصر وعلومه؟ هذا هو السؤال الكبير الذي طرحه روّاد الفكر العربي, واتّجهوا في حله مذاهب شتى: فالسلفيون تخطوا الواقع, وتجاهلوا التطور, مستنجدين في رؤاهم الفكرية بصورة مثالية للماضي, ونادوا بعدم الحاجة إلى الغرب وثقافته, لأن التراث الإسلامي يكفي ذاته بذاته, ولأن في هذا التراث من المقوّمات الذاتية الأصلية ما يكفل للعرب نهضة حقيقية إذا هم عرفوا كيف يعودون إلى الماضي وثقافته, وهناك بالمقابل الآخذون بثقافة الغرب, واقتفاء خُطاه العلمانية في الفكر والسياسة والاجتماع والاقتصاد, عادّين التراث مجرد ركام تاريخي تجاوزه التطور, يعرقل الانطلاقة المنشودة, فإذا أردنا حياة في هذا العصر الحضاري الجديد, فإما التقدم أو الانقراض ولا طريق وسط بينهما.

وبين هذين الاتجاهين المتعارضين قام اتجاه ثالث, سرعان ما أصبح أكثر انتشاراً يدعو إلى التوفيقية بين التراث والغرب, والأصالة والمعاصرة. لقد كان النموذج الحضاري الغربي يتحداهم, والنموذج العربي الإسلامي يشكل السند الذي يؤكد ذاتهم في وجه التحدي الغربي. وقد حمل إليهم النموذج الأوروبي أمرين متناقضين في آن: الاستعمار والحرية اللبرالية. ومثلما ازدوجت المشاعر تجاه الغرب, فقد ازدوجت أيضاً تجاه التراث, فإذا كانت الايديولوجيا الغربية قد أوجدت كراهية المستعمر, والرغبة في استيراد علومه ومنجزاته, فإن التراث قد أوجد أيضاً ازدواجاً في المشاعر تجاهه, بين الحب والكراهية, الحب لأصالته, والكراهية لركوده, والرغبة في تجاوزه. ووجد العربي نفسه مضطراً عندما يختار أحد النموذجين, لأن يخوض حرباً ضد النموذج الآخر[2].

غير أن كل اتجاه من هذه الاتجاهات الثلاثة عدَّل في موقفه الفكري من بعد: فالسلفيون لم يعد بإمكانهم الانصراف عن الواقع المعاش, لأنهم وجدوا أنفسهم في ظل حضارة غربية تفرض عليهم في كل مجال حقائق علمية لا يمكن رفضها أو نكرانها, لأن تطبيقاتها العلمية هي أساس الحضارة الوافدة التي تغزوهم وتتحداهم. ولذلك أخذوا يقبلون بالكثير منها مسوّغين ذلك بأن التراث قد سبق إلى التبشير بها.

ودعاة الاتجاه التغريبي لم يعد بإمكانهم أن يستمروا في الهروب إلى الأمام, فلقد وجدوا أنفسهم يعيشون تناقضاً يتجلى في اضطرارهم إلى الوقوف بجانب مواطنيهم لمقاومة الغرب الذي يعجبون به ويدعون إلى الأخذ منه, لأنه هو نفسه الغرب الاستعماري الذي يحتل أوطانهم ويسرق خيرات بلادهم.

وأما دعاة الاتجاه التوفيقي فقد حاولوا التمييز بين التراث السلبي والتراث الإيجابي, وبين الغرب العقلاني اللبرالي, والغرب الاستعماري الامبريالي. وفي إقامة الجسور بين الماضي العربي المجيد والمستقبل المنشود, على غرار التقدم الأوروبي, فوقعوا في ازدواجية فكرية.

---

[1] محمد عزام, الاتجاهات الفكرية المعاصرة من السلفية.. إلى الحداثة, ط01, منشورات, وزارة الثقافة, سوريا- دمشق2004, ص13.

[2] السيد ولد أباه, الدين والهوية إشكالات الصِدام والحوَار والسلطَة, ط01, جداول للنشر والتوزيع, بيروت- لبنان2010, ص75.

6. نهاية التاريخ:

إن أطروحة نهاية التاريخ التي قدّمها الأمريكي ذو الأصل الياباني فرانسيس فوكوياما صيف1989, تنطلق من أن المعالجة في مجال الايديولوجيا والوعي لا تكمن في الأفكار التي يحملها الناس في أي مكان, بل تكمن في ما يمكن اعتباره إرثاً أيديولوجياً للبشرية[1].

لقد واجهت الليبرالية الفاشية والنازية وأسقطتهما, وواجهت الشيوعية فهزمتها, وهذه المنافسات أصبحت في حكم الموتى. وهو يتساءل: بعد ذلك هل بقي هناك منافسون أيديولوجيون؟

يقرر جواباً عن هذا السؤال إن الديمقراطية الليبرالية تشكل فعلاً منتهى التطور الأيديولوجي للإنسانية, والشكل النهائي لأي حكم إنساني بعد انهيار الاتحاد السوفياتي. ما يعني نهاية التاريخ وتحقق الانتصار الشامل للنموذج الحضاري الغربي كخيار وحيد لمستقبل الإنسانية. ففي نهاية التاريخ لا يبقى منافس حقيقي للديمقراطية الليبرالية في أجزاء متعددة من العالم الإسلامي. إن السياق المنطقي لأطروحة نهاية التاريخ يؤول إلى انتفاء أسباب الصدام بين الدول والشعوب كمحصلة طبيعية لسيادة شكل الحكم الأكثر عقلانية بلا منافس أيديولوجي حقيقي. يقرر فوكوياما أن العالم سينقسم إلى جزء ما بعد تاريخي يضم الدول الديمقراطية, وجزء آخر يظل دائماً في التاريخ ودورته المفتوحة ويشمل الدول غير الديمقراطية.

في العالم الأول سينتهي الصراع لمصلحة التفاعل الاقتصادي بين دوله, وبالتالي فإن الحروب والأخطار العسكرية ستنتهي, بينما يبقى العالم المنخرط في التاريخ مواصلاً لانقساماته ونزاعاته وصراعاته الايديولوجية والقومية والدينية. وبالتالي فالخلاص والنجاة للأمم والشعوب هو بالالتحاق بركب الديمقراطية الليبرالية, أما العلاقات بين العالمين فسوف تتوفر لها محاور عديدة يتصادمان فيها وستظل مشحونة بالحذر والخوف المتبادلين.

يعيد فوكوياما مرة أخرى بناء حائط برلين جديد يفصل به, لا بين ايديولوجيتين متناقضتين, بل بين نوعين من البشر: أولئك الجديرون بالحياة وأولئك المسموح لهم بالموت[2].

أما عن تاريخ الديمقراطية وأصالتها حسب فوكوياما مقطوعة الجذور, لم توجد في العالم قبل عام 1776 تاريخ إعلان استقلال الولايات المتحدة. فديمقراطية أثينا في عهد بريكليس لا يمكن اعتبارها ديمقراطية لأنها لم تكن تحمي بانتظام الأفراد, بل إن هذه الديمقراطية الأثينية تمكنت من إعدام أشهر مواطنيها, سقراط لأنه مارس بحرية حقه, وأفسد الشبيبة بحسب تقارير الاتهام.

الديمقراطية الليبرالية عنده نشأت مع الولايات المتحدة الأمريكية, وهو يفاجئنا بإنكاره للجذور الأوروبية للديمقراطية الغربية, فيتنكر للماغنا كارتا(Magna Carta) الوثيقة الكبرى التي وقعها عام 1215 الملك جون بضغط من طبقة النبلاء, والتي شكلت نقطة الانطلاق نحو قيام النظام الدستوري, والذي أدى عام1265 إلى تشكيل أقدم برلمان في العالم في بريطانيا, وهذا كان طبعاً ليس فقط قبل استقلال الولايات المتحدة الأمريكية, بل قبل اكتشاف أمريكيا بأكثر من مائتي سنة. وهو بهذا الادعاء يريد أن يعلن أن الديمقراطية الأمريكية هي أول ديمقراطية حقيقية عرفها التاريخ, وهو ادعاء يفتقد إلى الموضوعية.

ويتساءل فوكوياما لماذا لا تتبنى أغلب البلدان الديمقراطية الليبرالية طالما هي شكل الحكم الأكثر عقلانية؟ يجيب عن هذا السؤال معتبراً الثقافة يمكن أن تشكل عائقاً أمام الديمقراطية الانتقال إلى الديمقراطية[1], والعوامل الثقافية المعوقة يراها تتمثل في:

---

[1] فرانسيس فوكوياما, نهاية التاريخ والإنسان الخير, مركز الانماء القومي, لبنان- بروت1993, ص302.

[2] عبد الغني عماد, سوسيولوجيا الثقافة المفاهيم والإشكاليات...من الحداثة إلى العولمة, ط01, مركز دراسات الوحدة العربية, بيروت - لبنان2006, ص237.

1. درجة قوة الانتماء الإثني. يعتقد فوكوياما أن الديمقراطية لن تظهر في البلاد التي تكون فيها القومية أو الانتماء الإثني, لأن هذه المجموعات لا تستطيع ان تقتسم مفهوماً موحداً للأمة أو أن تتبادل الاعتراف بحقوق بعضها البعض.

2. الدين يعتبره أيضاً عائقاً أمام الديمقراطية, موضحاً أنه لا يوجد صراع دستوري بين الدين والديمقراطية الليبرالية إلا عندما يكف الدين عن كونه متسامحاً وعادلاً. ويستشهد بهيغل الذي يعتقد ان المسيحية مهّدت الطريق امام الثورة الفرنسية برفعها شعار المساواة, وبماكس فيبر معتبراً البروتستانتية وحركة الإصلاح الديني كانتا وراء نشأة الرأسمالية وحركة العلمنة, وأن معظم الديمقراطيات الحالية هي كاثوليكية. أما الإسلام فهو دين كلي شمولي كاليهودية, يريد تقعيد(فرض قواعد) كل مظاهر الحياة الإنسانية العامة والخاصة, بما في ذلك مجال السياسة.

3. البنية الاجتماعية: حيث يشكل الوجود المسبق لبنية اجتماعية غير عادلة أصلاً عقبة أمام ظهور ديمقراطية مستقرة. فقوة واستقرار الديمقراطية في أمريكا يرجعان إلى العادات الثقافية المهيمنة التي انتقلت إلى أمريكا الشمالية من إنكلترا وهولندا الليبراليتين, بينما حظيت دول أمريكا اللاتنية بموروث إسباني أو برتغالي استبدادي.

4. قدرة الجماعة على خلق مجتمع مدني سليم. وهنا تظهر قدرات الشعوب على تطبيق ما يسميه توكفيل «فن التجمع» بعيداً عن كل تدخل للدولة, حيث يعتبر أن أفضل شكل للديمقراطية يتبدى إذا ما بدأت من الأسفل إلى الأعلى, وليس العكس. فالحكومة المركزية تظهر في هذه الحالة كنتاج طبيعي للسلطات الحاكمة المحلية المتعددة, وللجمعيات الخاصة التي تستعمل كمختبرات ومدارس للتعلم وممارسة الحرية والتحكم بالذات.

تشكل هذه العوامل مجتمعة ثقافة شعب, واختلاف الشعوب يفسر اختلاف موقفها من الديمقراطية, ويفسر مدى قابلية هذه الشعوب للدمقراطية. وبالتالي تصبح بعض الشعوب وفق هذا التحليل عاجزة على أن تتحول نحو الديمقراطية لأسباب ثقافية عميقة.

7. خاتمة:

ثمَّة تلازم بين مفهوم صورة الذات ومفهوم صورة الآخر فاستخدام أي منهما يستدعي تلقائياً حضور الآخر. فصورتنا عن ذاتنا لا تتكون بمعزل عن صورة الآخر لدينا. لقد خضع الأنا الشرقي من منظور غربي لدراسات غزيرة, ومن منطلقات منهجية مختلفة, غير أن جل الباحثين يتفقون على اعتبار الادراك الغربي للشرق العربي الإسلامي مازال مسكوناً بالتصورات والأحكام القبلية التي أنتجها التراث الوسيطي ولا سيما المسيحي منه. بل إن فكر الأنوار بالرغم من بعض الكتابات النقدية فيه, لم يتمكن من تكوين نظرة مغايرة وجديدة عن الإسلام. وبات راسخاً في الأذهان أن الإسلام هو مصدر الإسلاماوية وهذه الأخيرة هي مصدر الإرهاب. والمؤلم أن أطروحات مغلوطة كثيرة قد انتشرت في الغرب ومنها أن المهاجر المسلم يضع نصب عينيه كرسالة حياة مهمَّة أساسية هي أن يقود المجتمع الغربي كالقطيع باتجاه حظيرة الإسلام, ومنها أيضاً أن الإسلام الأصولي قد تغلغل في الاقتصاد الأوروبي مما يسهل توفير الدعم لجنود الإسلام. فأي شخص يدين بهذا الدين سيكون بالضرورة مجرماً وإرهابياً ومن ثم يتعين الحذر منه والابتعاد عنه, وهكذا بدا العالم خصوصاً في أوروبا وأمريكيا وكأنه مصاب بلوثة عقلية جعلته يكره فعلاً لا قولاً العرب والمسلمين ويراهم أقواماً من الأشرار والرعاع والفوضويين.

تتدخل في عملية تشكيل الصورة عدة عوامل منها :

---

[1] فرانسيس فوكوياما, مرجع سابق, ص315.

مؤسسات التنشئة الاجتماعية فعملية التنشئة الاجتماعية هي عملية تفاعل يتم خلالها تمثل الفرد لمعايير وقيم وثقافة مجتمعه, ليصبح متكيفاً مع بيئته الاجتماعية. وقِوام هذه العملية هو نقل التراث الثقافي والاجتماعي للإنسان من جيل إلى جيل, ويتم اكتساب الأفراد ذلك منذ ولادتهم وحتى تتكامل شخصياتهم مع مظاهر بيئاتهم الاجتماعية.

الخطاب الإعلامي سواءً كان مادة مكتوبة, مذاعة, أو مرئية, التي تقيم علاقة جدلية مع المجتمع تعكس الواقع وعلاقات القوة المهيمنة فيه, وتسهم في بنائها عبر عمليات ادارك الواقع, وتحديد الهويات الاجتماعية.

الذاكرة الجماعية تؤدي وظيفة ضرورية للعقل اعتقد لوك أن الذاكرة تنطوي على "مستودع لأفكارنا" ومن خلال أعمال الذاكرة تتحقق الفكرة فعلاً مرة أخرى. وفي الأخير تبقى الحاجة ملحة إلى تصحيح الرؤية الذهنية المتبادلة بين الشرق والغرب, من أجل تفعيل الحوار ما بين الثقافات لتفادي حرب الهويات القاتلة.

قائمة المراجع:

1. بعلبكي أحمد "وآخرون", الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر, ط01, (بيروت- لبنان, مركز دراسات الوحدة العربية, 2013), ص235.
2. جاسم بن محمد المهلهل الياسين, الهوية الإسلامية, ط01, (الكويت, شركة السماحة للطباعة والنشر, 2012), ص10.
3. حرب علي, حديث النهايات فتوحات العولمة ومأزق الهوية, ط02, (المغرب, المركز الثقافي العربي, 2004), ص181.
4. داريوش شايغان, أوهام الهوية, ط01, (بيروت- لبنان, دار الساقي, 1992), ص71.
5. ديبتر سنغاس, الصدام داخل الحضارات التفاهم بشأن الصراعات الثقافية, ط01, (مصر- الاسكندرية, دار العين للنشر, 2008), ص133.
6. روجيه غارودي, نحو حرب دينية؟ جَدَل العصر, ط03, (بيروت- لبنان, دار الفرابي, 2001), ص27.
7. السيد ولد أباه, الدين والهوية إشكالات الصِدام والحوَار والسلطَة, ط01, (بيروت- لبنان, جداول للنشر والتوزيع, 2010), ص75.
8. عبد الغني عماد, سوسيولوجيا الثقافة المفاهيم والإشكاليات...من الحداثة إلى العولمة, ط01, (بيروت - لبنان, مركز دراسات الوحدة العربية, 2006), ص237.
9. عزام محمد, الاتجاهات الفكرية المعاصرة من السلفية.. إلى الحداثة, ط01, (سوريا- دمشق, منشورات, وزارة الثقافة, 2004), ص13.
10. فرانسيس فوكوياما, نهاية التاريخ والإنسان الخير, (لبنان- بروت, مركز الانماء القومي, 1993), ص302.
11. قُرْم جورج, المسألة الدينية في القرن الواحد والعشرين, ط01, (بيروت- لبنان, دار الفرابي, 2007), ص95.
12. لبيب الطاهر, صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه, ط01, (بيروت, مركز دراسات الوحدة العربية- الجمعية العربية لعلم الاجتماع, 1999), ص812.
13. المسيري عبد الوهاب, الهوية والحركية الإسلامية, ط02, (دمشق, دار الفكر, 2010), ص141.
14. معلوف أمين, الهويات القاتلة قراءات في الانتماء والعولمة, ط01, (دمسق - سوريا, ورد للطباعة والنشر, 1999), ص57.